استخدام الفصيح
في ألفاظ الحديث للكتابة للأطفال

إعداد/ أ. يعقوب الشاروني [1]

لكل عمر قاموس اللغوي:

على الرغم من ظهور أعداد كبيرة من كُتب الأطفال وقصصهم باللغة العربية، إلا أن معظم مُفردات لغتها كانت فوق مُستوى من كتبت لهم من الأطفال. ونتيجة لهذا الخطأ الفني، ملّ الأطفال قراءة تلك القصص.

والسبب الرئيسي في هذه الظاهرة، أن من يكتبون للأطفال لا يجدون أمامهم ما يرشدهم إلى المُفردات والتراكيب التي يجب أن يُخاطبوا بها العمر الذي يوجهون إليه كتاباتهم.

أما في اللغات الأجنبية، فقد قام كثير من الباحثين بجمع قوائم المُفردات والتراكيب، التي تدخل في القاموس اللغوي للأطفال في الأعمار المُختلفة، ونشروا هذه القوائم، ليستعين بها المؤلف لكُتب الأطفال، وليستعين بها غيرهم ممن يتعاملون مع الأطفال.

الطفل وثنائية اللغة:

ويواجه من يكتبون لأطفالنا باللغة العربية، مُشكلة أخرى، تضاف إلى مُشكلة التعرّف على قاموس الأطفال اللغوي في أعمارهم المُختلفة، " مُشكلة ثنائية اللغة "، التي يتعيّن على الطفل أن يواجهها أول ما تبدأ علاقته بالكُتب.

فالطفل لا يعرف في بداية حياته إلا لغة الحديث اليومي، وهي ما اصطلحنا على تسميتها " باللغة العامية " يفهمها ويتفاهم بها في البيت والطريق والمدرسة. فإذا ما بدأ حياته المدرسية، أخذ في تعلّم العربية الفصحى، التي توحي الكُتب المدرسية أنها لغة جديدة غريبة عن الطفل، وإذا حاول استخدام بعض ألفاظها في البيت أو الطريق، قابلته ضحكات السخرية أو إمارات الدهشة.

تجربة تؤكد عدم مُلائمة ألفاظ الكُتب المدرسية لأطفالنا:

وقد قام الأستاذ محمد محمود رضوان بتجربة كشفت عن عجز كثير من الأطفال عن فهم معظم

(1) كاتب أطفال.

الكلمات التي تحتوى عليها الكُتب المُستخدمة في المدارس، فقد جمع عيّنة تتألّف من مائة كلمة بطريق عشوائية، من ستة كُتب كان استخدامها شائعًا في رياض الأطفال، وأجرى اختبارًا على مائة طفل من سبع مدارس من رياض الأطفال بالقاهرة (50 ولدًا و 50 بنتًا)، فاتضح من هذه التجربة ما يأتي :

1 – أن عدد الأطفال الذين فهموا أكثر من 50٪ من الكلمات، يبلغ 62 طفلاً، على حين أن 38 منهم فهموا نصف الكلمات أو أقل .

2 – أن عدد الكلمات التي فهمها أكثر من نصف الأطفال يبلغ 53 كلمة على حين أن 47 كلمة فهمها نصف الأطفال أو أقل .

3 – أن الطفل المتوسط عرف 7و53٪ من الكلمات، وهذه نسبة ضئيلة جدًّا، خاصة وأن الاختيار أجرى في شهر مايو، أى بعد ثمانية شهور من الدراسة التي كانت تعتمد على تلك الكُتب .

4 – أن 10٪ فقط من الكلمات كانت مفهومة لجميع الأطفال، على حين أن 6٪ منها لم يفهمها أي طفل على الإطلاق .

ويقول الأستاذ محمد محمود رضوان في كتاب " الطفل يستعد للقراءة " تعليقًا على هذه النتيجة الأخيرة : " ومن الطريف أن نلاحظ أن الـ 10٪ التي فهمها جميع الأطفال كانت من الكلمات التي وردت بنسبة عالية من الشيوع في قوائم أحاديث الأطفال، وأن الـ 6٪ التي لم يفهمها أحد لم ترد كلمة منها في تلك القوائم " .

فأما الكلمات العشر التي فهمها جميع الأطفال فهي :

" يأكل ـ يشرب ـ أحمر ـ بطيخ ـ ضحك ـ أرنب ـ خضراء ـ يلعب ـ قرش ـ حزام " .

فأما الكلمات الست التي لم يفهمها أى طفل على الإطلاق فهى :

" كيف؟ ـ خجل ـ إذن ـ يهين ـ تثاءب ـ تأسف " .

وينتهي صاحب التجربة إلى ما عَبّر عنه " بالنتيجة المحتومة " وهي " أهمية اتفاق كلمات كُتب الأطفال الصغار مع قاموسهم الكلامي " .

يجب أن يقرأ الطفل الألفاظ التي يعرفها:

لذلك فإن لغة الطفل التي يتحدّث بها ويعرفها ويفهمها، ينبغي أن يُبنى عليها ما يُقدّم عليه من كُتب وأدب، ذلك أن علينا أن نستغل خبرات الأطفال اليومية المُباشرة، لنصل إليهم وهذا يقتضى أن يستخدم – بقدر الإمكان – لغتهم التي يستخدمونها في أحاديثهم، متى كانت سليمة من الناحية اللغوية .

إن كاتب الأطفال يُريد أن يصل، لا إلى عدد محدود من الأطفال الذين تُهيئ لهم بيئاتهم الاستماع

المُستمر لتعبيرات اللغة الفصحى واستخداماتها، بل إلى جمهور الأطفال المُنتشر في كل مكان، والذين لا تصافح أسماعهم " اللغة الفصحى " إلا نادراً.

إننا، إذا قصرنا لغة الكتابة على ألفاظ بعينها، يُدرك معناها قوم قليلون، ويجهل مرماها الآخرون، فإننا نعمل على إيجاد هوة فاصلة بين الخاصة وهم قلة، والعامة وهم كثرة، ووضعنا عائقًا أمام الكثرة الغالبة من الأطفال تحول بينهم وبين فهم وتذوّق وحب الكُتب الموجّهة إليهم.

فلنعلّم الطفل شيئًا واحدًا في الوقت الحالي:

إن معظم تلاميذ المدارس يأتون في الوقت الحالي من قطاعات تعتبر من أكثر القطاعات الاجتماعية تعرّضًا للحرمان، ولم تألف هذه القطاعات الفقيرة الكلمة المكتوبة أيًّا كان نوعها.

وتدل الدراسات التربوية على أن الأطفال الذين ينشئون في بيوت تتيح لهم فرصة الاطلاع على الكُتب المُلائمة، والاستماع إلى الراديو، وتبادل الحديث، والإنصات إلى الحكايات والقصص، وغير ذلك من أنواع التدريب اللغوي، يكونون أقدر على تعلّم القراءة من الأطفال الذين ينشئون في بيوت حرمتهم تلك الوسائل التعليمية المُختلفة.

ولقد أشار الباحثون، منذ أكثر من قرن، إلى أن " طفل الأغنياء يفهم كلمات أكثر، وأفعالاً أقل من طفل الفقراء، وأن الأخير يفهم أفعالاً أكثر وكلمات أقل ".

ويقول الدكتور صالح الشماع في كتابه " ارتقاء اللغة عند الطفل " : "إننا نرى الإشارة إلى هذه الحقيقة في كتاب روسو " أميل والتربية " منذ أكثر من قرنين ".

فإذا كُنا نستقبل طفل هذه البيئات الفقيرة بأن نقدّم له، في أول ما يقرأ من كُتب، لغة فصحى، تختلف عن لغته اليومية في الألفاظ والتراكيب، فإننا نكون قد جعلناه يواجه حاجتين كبيرتين معًا، وفي نفس الوقت: **الأولى**: حاجته إلى أن يتعلّم القراءة ويُحبها، حتى يجعل من الكتاب صديقًا دائمًا له. **والثانية**: حاجته إلى أن يتعلّم في نفس الوقت لغة نتركه يحس أنها جديدة عليه، وما يُصاحب هذا من شعوره بأنها صعبة وغامضة وغير مُحدّدة، ولا تثير لديه صوراً من خبراته السابقة، فتنقطع الصلة الوجدانية والفكرية بينه وبينها.

هذا في حين أن القواعد التربوية السليمة توجب ألا نُعلّم الطفل، في الوقت الواحد، إلا أمراً واحداً، فإذا أتقنه انتقلنا منه إلى غيره. أما إذا أردنا أن نعلّمه أشياء مُتعدّدة في وقت واحد، فالنتيجة الحتمية لذلك أن نخفق في تعليمه إياها جميعًا.

أدب الأطفال وكُتب تعلّم اللغة:

وفي هذا لا يجب أن نلقى مُهمة رعاية النمو اللغوي للطفل على عاتق أدب الأطفال وحده، فهناك

مجالات خاصة بذلك في مواد الدراسة، تشمل كُتب القراءة والتعبير والنصوص، وغيرها من المواد التي تهدف إلى تعليم اللغة للأطفال.

أما أدب الأطفال، فإنه يهدف أساسًا إلى الإمتاع، وتكوين العواطف، وتنشيط الخيال، وتعويد الصغار بطريق غير مُباشر، على المُعايشة السليمة للأحداث والأشخاص، والسلوك الإنساني الفاضل الكريم، وحفزهم على الخلق والابتكار والتجديد وتحمّل المسئولية، واكتشاف مواطن الصواب والخطأ في المُجتمع. فإذا تعلّم الطفل، بجوار هذان لفظًا جديدًا، فإنما يتعلّمه عرضًا دون عمد أو قصد من الكاتب.

وكاتب الأطفال الموهوب: هو الذي لا يجابه الطفل بألفاظ توقعه في حيرة من أمره لأنه لا يفهمها، أو تقطع عليه سلسلة خيالاته وتجاوبه مع موضوع القصة وشخصياتها، ومعايشته لأحداثها، لكي يبحث عن معنى اللفظ الذي لا يعرفه.

كيفية الاختيار من ألفاظ الحديث اليومي:

ومن ناحية أخرى، فإنه لابد من إعداد الطفل ليُجيد في مُستقبل حياته فهم الفصحى وقراءتها، إذا أُريد له أن يمضي قدمًا في برنامجه التعليمي، في أول حياته كمواطن عربي. لكن مواجهة الطفل باللهجة الفصحى الغريبة عنه أول ما يدخل المدرسة أمر خطير غاية الخطورة من الناحية التربوية والناحية النفسية جميعًا كما سبق أن أوضحنا. لذلك قلنا إن مفردات الطفل وتراكيبه التي يستخدمها في حديثه، ينبغي أن تكون المادة الأولى في أول الكُتب التي نضعها بين يديه.

لكن ليس معنى هذا أن نترك العامية تسيطر على تعبير أطفالنا، بل نحن نقول فقط إنه يجب أن يلتزم في اللغة التي يكتب بها الأطفال، بالألفاظ والكلمات التي يعرفها الطفل ويفهمها، وهي التي تكون متداولة عادة في حديثه اليومي.

وليس معنى هذا أن نستخدم فيما نكتبه للطفل من أدب " كل " الألفاظ، التراكيب التي يستخدمها في حديثه اليومي، بل الأمر يقتضى أن نختار من قاموس الطفل الكلامي تلك المفردات والتراكيب التي يشترك مع اللهجة الفصحى، فنؤلف منها بقدر الإمكان مادة القراءة والكتابة، خاصة في المرحلة الأولى التي يتصل فيها الطفل بالكتاب.

رجال التعليم يقرون ضرورة الاستفادة بلغة الحديث:

وهذا هو الرأي الذي انتهت إليه اللجنة الدائمة لترقية اللغة العربية في سنة 1948، إذا جاء في محضر إحدى جلساتها:

"في تعليم القراءة والكتابة للمبتدئين، تستعمل الكلمات التي هي عربية وعامية، مع تسكين الآخر".

كما جاء في التقرير الذي قدّمه المستشار الفنى لوزارة المعارف، في أبريل سنة 1948، إلى وزير المعارف، عن المقترحات الواردة في تقرير لجنة ترقية اللغة العربية بالمدارس، والتي نوقشت في مؤتمر مفتشى اللغة العربية ومدرسيها في فبراير 1948 ما يلي:

" أن تتخذ لغة الأطفال العامية وسيلة للتعليم في أول الأمر في مرحلة الرياض والمدارس الأولية، وتبذل بعض العناية لتهذيب هذه اللغة العامية، مع ملاحظة أن تكون قريبة في شكلها من عامية الطفل، ويراعى في تصحيح نطق الأطفال ألا يكون إلا بالقدر الذي لا يحول بينهم وبين الانطلاق في التعبير ".

المسافة ليست كبيرة بين الفصحى والعامية:

ونحن إذا تتبعنا لغة التخاطب الآن، لنعلم نسبها من العربية، وجدناها نفس العربية، ولكن طرأ عليها التحريف بنقص أحوال الإعراب، أو تغيير حروف بعض الكلمات (الحركة أو السكون أو التخفيف أو التشديد أو الحذف أو الزيادة أو القلب أو الإبدال). وقد يرد الخطأ عليها من ناحية الاشتقاق مثل " مبروك " فإن الصحيح " مبارك " وهناك كلمات دخيلة اقتضتها سُنة المخاطبة.

والكثرة الكبرى من الألفاظ العربية، إما عربية قرشية صحيحة، وإما مُحرّفة عنها تحريفًا قليلاً، وإما عربية من لهجات قبائل أخرى غير قريش، أو مُحرّفة عنها تحريفًا قليلاً. ومن هذه الألفاظ ما يستخدمه الصغار في تعبيراتهم اليومية، ويُقبل منهم في لغة الحديث والمناقشة حتى أثناء الدرس، فإذا ما كتبوها في موضوعات التعبير التحريري، يشجبها أساتذتهم باعتبارها نابية، مع أنها من ألفاظ الفصحى، وتحتل أماكن في معاجمنا.

وزيادة على ذلك فهي حية يتداولها الناس.

إن بُعْد الألفاظ العامية عن العربية مُبالغ فيه، ومن اليسير تدارك الأمر إذا نحن عنينا بجمع المُفردات العامية، وعنينا بإعادة إلى الاعتبار إلى كل ما يُمكن رد الاعتبار إليه، وصحّحنا كل ما يُمكن تصحيحه منها، بغير إبعادها عن صورتها الأولى كُلّما أمكن ذلك.

كما أن الدراسات الحديثة التي تناولت اللهجة العامية، تؤكّد ضرورة الاعتراف بصحة كل ما جرى على قياس كلام العرب، أو على خصائص لهجة عربية، أو على كلام مروى عن شاعر أو لغوى ثقة، أو أمكن تخريجه على وجه صحيح.

كما تؤكّد هذه الدراسات على ضرورة تطبيق القواعد التي انتهى إليها مجمع اللغة العربية وغيره من المجامع العربية، في أقيسه اللغة وأوضاعها العامة، كالقياس والسماع، والمولد، والمعرب، والدخيل، والاشتقاق، والنحت، وما إليها. ثم تطبيق القواعد السليمة التي انتهى إليها اللغويون القدماء والمحدثون، للتطور اللغوي في الأصوات، والدلالة، والصياغة.

(يُراجع كتاب " لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديث " الدكتور عبد العزيز مطر، صفحة 51).

وخلاصة هذا: أن أهم الوسائل التي تجعل اللغة مقبولة، ومتداولة أن تكون لألفاظها مُدركات يستوعبها العامة والخاصة بسهولة وبغير جُهد أو عناء، وأهم السُبل إلى ذلك: ألا يحتقر الكاتب الصحيح من مُفردات العامية، فيهجره، بل يجب أن نأخذ الألفاظ الصحيحة، ونأخذ الألفاظ المريضة بعد أن نصحّحها، ونجعل كل ذلك يجرى بأقلامنا كل يوم، فيأنس الأطفال والصغار بلغتنا، لأنهم يقرءون كلمات يردّدونها في حياتهم اليومية، ثم يأخذون، من حيث لا يشعرون، كثيراً من الألفاظ الأخرى التي نكتبها، والتي ليست مُستخدمة في الحديث اليومي.

لذلك يجب أن تتطوّر ألفاظ كُتب الأطفال بما يتفق ومصالح الكثرة من أطفالنا، الذين نريد أن نحبب إليهم الكُتب والقراءة، بشرط أن يُساير تطوّر ألفاظنا الأسلوب العربي في الصياغة والتعبير.

لا نقول باستخدام العامية، بل بالفصيح من ألفاظ الحديث اليومي:

إننا ننادى باستخدام ألفاظ العامية المُنحدرة من أصل عربي، شريطة أن تخضع في ضبطها لقواعد العربية.

فإذا أردنا أن نقدّم للطفل مادة قراءة صحيحة من وجهة النظر اللغوية، وهى في الوقت نفسه مما يستخدمه الطفل في حديثه اليومي، فعلينا أن نرجع إلى قاموس الطفل الكلامي، وندرس محتوياته، لنتبيّن فيه ما يلي:

(أ) الكلمات المُشتركة بين العامية والفصحى، ولها في الوقت نفسه، نسبة عالية من الشيوع في أحاديث الأطفال.

(ب) الكلمات العامية ذات النسبة العالية من الشيوع في لغة الطفل، وبينها وبين نظائرها في الفصحى تقارب كبير في النطق. ولا بأس أن نقدّم هذه إلى الأطفال بعد تهذيبها، بل إنها إذا قدّمت في صياغتها الفصحى، فلن يجد الطفل مُشكلة في فهمها، مثل "حصان" و"منديل".

حاجتنا إلى الجهود العلمية المنظمة لوضع قاموس لألفاظ الأطفال وكلمات كُتبهم:

إننا في حاجة إلى دراسات شاملة، لتسجيل قاموس الأطفال الكلامي والفهمي، أي الألفاظ التي ينطقونها، والتي يفهمونها في الأعمار المُختلفة، كما إننا في حاجة إلى وضع معاجم تحتوى على الألفاظ الفصحى، أو القريبة من الفصحى، التي نتداولها في حديثنا اليومي، لنختار من بينها ما يُناسب الأطفال، لنستخدمه في كتاباتنا لهم. خاصة صغار السن منهم، فهذه الكتب الأولى هي التي تقوم بالدور الأساسي والحاسم في التقريب بين الطفل والكُتب، وفى تنمية وعى القراءة، وفى تنمية حب الكتاب لدى الأطفال، وتعميق ارتباطهم الدائم به.

قوائم بالفصيح من ألفاظ الحديث اليومي:

وقد قمنا بإعداد قوائم تشتمل على حوالي " 2300 " كلمة من ألفاظ الحديث اليومي، راجعناها على المُعجم الوسيط، الذي أصدره مجمع اللغة العربية، وكلّها ألفاظ مُشتركة بين العامية والفصحى، أو بينها وبين نظائرها الفصحى تقارب كبير فقمنا بردها إلى أصلها الفصيح.

ونقدّم نماذج لبعض ألفاظ هذه القوائم، نرفقها مع هذه الدراسة.

وقد قمنا بإعداد هذه القوائم حتى نستفيد بها ونحن نكتب للأطفال، ونرجو أن تتاح لنا قريبًا إمكانية نشرها كاملة، ليستفيد بها الزملاء الذين يكتبون للأطفال، فتجيء كتاباتهم أكثر قربًا لفهم وإدراك الغالبية العظمى من أطفالنا.

ملاحظات على قوائم الألفاظ:

1 – أوردنا الألفاظ بترتيب ورودها في المُعجم الوسيط، حتى يسهل الوصول إليها فيه، رغم مخالفة هذا الترتيب للترتيب الأبجدي أحيانًا.

2 – تستخدم ألفاظ القوائم عند الكتابة للأطفال بمعناها المتداول الذي يفهمه الأطفال، إذا كان مُتفقًا مع أحد معاني الكلمة في الفصحى، مع استبعاد استخدام اللفظ إذا أريد به الدلالة على معاني أخرى غير التي أوردها المُعجم.

فكلمة "أصل" يستخدمها "الأطفال بمعنى" الأساس الذي يقوم عليه الشيء "فيقولون: أصل الحكاية – فلا تستخدم بمعنى " النسخة الأولى المُعتمدة " أو " قط " أو " كرم النسب " .

وكلمة " بُرْج " يعرفها الأطفال عندما تستخدم لدلالة على " البناء الخاص الذي يأوى إليه الحمام " أي " برج الحمام " – فلا تستخدم بمعنى " بروج السماء " ، ولا بمعنى " البيت الذي يُبنى على سور المدينة ليُقيم فيه الحُرّاس " .

وكلمة " البَرْقُ " يعرفها الأطفال بمعنى " الضوء الذي يلمع في السماء على أثر انفجار كهربائي " – فلا تستخدم عند الكتابة للأطفال بمعنى " التلغراف " .

3 – تستخدم الألفاظ الواردة في القوائم بنفس رسمها الوارد في القوائم. أما إذا تغير رسمها، بإضافة حروف إليها أو حذف حرف منها، فقد يبتعد اللفظ عن محصول الأطفال اللغوي.

فالأطفال يعرفون لفظ " البساط " بمعنى " ضرب من الفرش ينسج من الصوف ونحوه " – فإذا استخدمنا عند الكتابة للأطفال صيغة الجمع " بسط " ، فلن يفهمها الأطفال.

وكلمة " تبتسم " قريبة من اللفظ المتداول " إبتسم " – لكن إذا كتبنا للطفل لفظ "باسم" ، فقد يكون بعيدًا عن فهم الأطفال الصغار.

4 – عند نطق الكلمات الواردة في القوائم، خاصة لصغار الأطفال، تنطق بتمكين آخرها، لأن هذه هي الصورة المُعتادة لنطق كافة كلمات القوائم في الحديث اليومي.

5 – لم نضمن القوائم إلا الألفاظ التي رأينا – طبقًا لخبرتنا – أنه يُمكن أن يستوعبها الأطفال حتى سن 13 سنة. ونرجو أن تقدّم لنا الدراسات حصراً عمليًّا للألفاظ المتداولة بين الأطفال في كل مرحلة من مراحل عمرهم.

6ـ أثبت المعجم بعض الكلمات بأكثر من نطق، مثل: البَكْرَة والبَكَرَة. (الأولى بسكون الكاف والثانية بفتحها) وقد أثبتنا في القوائم الرسم القريب من الحديث اليومي (وهو هنا بفتح الكاف).

7 – بعض الألفاظ تنطق في الحديث اليومي على أكثر من وجه، وقد أوردنا هذه الأوجه المُتعدّدة في القوائم، متى كان المُعجم قد أقرّها: مثل اسطبل واصطبل. ومثل: البدروم والبدروم.

مراجع البحث:

1 – محمد محمود رضوان ـ " الطفل يستعد للقراءة " ـ نشر دار المعارف بمصر (الصفحات من 45 إلى 62) وهو أهم المراجع التي اعتمدنا عليها في الدراسة.

2 – د. عبد المنعم سيد عبد العال ـ " مُعجم الألفاظ العامية المصرية ذات الأصول العربية " ـ نشر مكتبة النهضة المصرية (الصفحات من 1 إلى 9).

3 – د. على الحديدي ـ " في أدب الأطفال " ـ نشر مكتبة الأنجلو المصرية (الصفحات من 76 إلى 78).

4 – د. صالح الشماع ـ " ارتقاء اللغة عند الطفل " ـ نشر دار المعارف بمصر (صفحة 152).

5 – أحمد نجيب ـ " فن الكتابة للأطفال " ـ نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (الصفحات من 44 إلى 48).

6 – د. هادى نعمان الهيتى ـ " أدب الأطفال " ـ نشر وزارة الإعلام بالعراق (الصفحات من 97 إلى 103).

7 – د. عبد العزيز مطر ـ " لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة " ـ نشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر (صفحة 51).

8 – يعقوب الشاروني ـ " دور المكتبة في تنمية عادة القراءة عند الأطفال " ـ دراسة مُقدّمة إلى الحلقة الدراسية الإقليمية لعام 1980 التي عقدتها الهيئة المصرية العامة للكتاب.

9 – يعقوب الشاروني ـ " الطفل والقراءة " دراسة مُقدّمة إلى الحلقة الدراسية الإقليمية لعام 1979 التي عقدتها الهيئة المصرية العامة للكتاب حول " كُتب الأطفال ".

10 – مجمع اللغة العربية ـ المُعجم الوسيط.

11 – محمد قدري لطفي ـ " القراءة الوظيفية " ـ نشر مكتبة مصر (صفحة 8).